

لغة القرآن من القبطية في مصر والبونيقية في السهل الأفريقي والبزنطية في العروق واللاتينية في السام

المؤذن عبد السلام هارون

رئيس قسم اللغة العربية
(جامعة الكويت)

القرآن الكريم والسنّة النبوية ، في سرعة مدهلة ،
بأقلام المسلمين من العرب والإعاجم ، ثم تطورت إلى
خدمة العلوم الكونية التي يبحث الدين على تحصيلها
بمقتضى الأمر الديني بالنظر في ملوك المعمورات
والارض ، وإلى خدمة العلوم السياسية والتنظيمية
والتاريخية التي اقتضتها سياسة الحكم الإسلامي
لتنظيم الإدارة وجباية الخراج ، وما استتبع ذلك من
التاليف في علوم الجغرافيا وتاريخ الشعوب التي اطلها
الإسلام . أقول : إن ظاهرة التاليف باللغة العربية
التي يستطيع المطلع على كتب التصانيف ، مثل كتاب
كشف الثنوں ملا كاتب جلبي ان يدرك أنها جاوزت
في العدد مئات من فروع العلوم المختلفة ، بارت فيها
أقلام العرب والإعاجم كانت عاملًا قويًا في انتشار هذه
اللغة الكريمة . ويكفي أن نذكر أن صاحب أول كتاب
في النحو العربي رجل أعمى هو سيبويه . ولا ريب
أنه لم يتوجه إلى ذلك إلا بالدافع الديني الذي ساقه
إلى خدمة لغة القرآن والحديث . وكذلك نلمح هنا
الدافع في الكثرة الاعجمية من رجال الحديث ، والفقه
الإسلامي والتفسير وعلوم العربية .

ولقد بلغ السلطان الديني للإسلام أن استطاع
أن يمحو اللغة القبطية في مصر ، التي كانت تطوراً من
اللغة المصرية القديمة الحضارة ، في زمن وجيز وأن

لا ريب أن الإسلام الذي نزل كتابه باللغة العربية ،
ونطقته سنته باللغة العربية ، وانطلقت
السنّة صاحبة رسوله بهذه اللغة ، وهي كلها
في مجموعها من أصول التشريع الإسلامي – لا ريب
إنه كان العامل الأول في انتشار اللغة العربية على نطاق
واسع سريع في أنحاء المعمورة قديماً وأنه لو لا التكسات
السياسية التي صنعتها الغارات التترية ، والنكسات
الاجتماعية التي ساقتها التيارات الشعوبية ، لفطت
هذه اللغة مساحة تفوق المساحة التي استقرت فيها
الآن .

واللغة العربية قبل القرآن والسنّة لم تكن تدور
إلا في نطاق محدود بين العراق والجهاز شرقاً وغرباً ،
وتحوم الروم وببلاد اليمن شمالاً وجنوباً ، فان تنقل
العرب كان محدوداً بهذه الجزيرة العربية ، ولم يكن
لها أثر يذكر في البلاد المجاورة كالفرس والروم
والஅඥاش . ولكن الوبية الإسلامية ساقت هذه اللغة
إلى بلاد الصين شرقاً والمحيط الاطلسي غرباً في مدة
لاتتجاوز القرن الأول الهجري بمقتضى الفتوح
والدعوة الإسلامية وهو انتشار قوي في سرعته ، لم
يعهد له نظير في أي لغة أخرى .

وإذا أسفنا إلى الفتوح والدعوة الإسلامية ظاهرة
التاليف باللغة العربية التي بدأت في أول أمرها لخدم

ومن هنا نستطيع ان نقول : ان اللغة العربية من الاسباب الجوهرية لانتشار الاسلام بين من يتكلمون العربية او يتعلمونها ، وليست هي كل الاسباب التي انتشر بها الاسلام .

واما ارتباط الوعي الاسلامي والوازع الديني بما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف فيمكن الاجابة عليه مما سبق من القول وهو ان الاسلام ليس لغة واقناظا ، وانما هو مباديء ومثل عليا للبشرية جماء يستطيع الم الدين ان يتمثلها في اي لغة وفي اية الفاظ كانت ، ما دامت تعبر عن تلك المباديء وتصور هاتيك مثل . وهنالك اهم اسلامية معاصرة لا تتكلم بالعربية ولا تفهم دين الاسلام بلغة العرب ، وانما تستمد وعيها الاسلامي ووازعها الديني من قبل لغاتها نفسها ، وفيها ائمه للدين يتعلمونه ويعلمونه بلغتهم كما هو الحال في اندونيسيا والملايو والباكستان حيث ترجم عدد كبير من امهات الكتب الدينية الى تلك اللغات ، والفت كذلك الكتب في مختلف مراحل الثقافة الدينية بين صغار المتعلمين وكبارهم ، وقامت الى جوار ذلك معاهد دينية وكليات اسلامية يدرس فيها الدين باللغات المحلية . ولكننا نستطيع ان نقول من زاوية اخرى : ان الوعي الاسلامي الكامل اي الادراك السليم لفاهيم الاسلام لا يتاتي الا بفقه لغة الكتاب وفهمها ، وذلك الفقه والفهم انما يتضمن على وجده الصحيح لن كان له حظ فهم اللغة العربية نفسها ، وذلك لما يتطلبه النص العربي ولا سيما الديني منه ، من احساس لغوي خاص ، ومن دقة في ادراك مرامي الاساليب العربية .

واما الوازع الديني فانه لا يواكب اللغة العربية تلك المواذبة التي يجري عليها الوعي الاسلامي فانما يحكم هذا الوازع البيئة التي يعيش فيها المسلم . ونحن في عصرنا الحاضر قد نجد الوازع الديني في بعض البلدان غير العربية ذا سلطان اعظم من سلطانه في بلاد يتكلم اهلها بالعربية ، لأن الوازع يتآثر بالبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية اكثر من تأثيره بالبيئة الثقافية ، لأن الوازع من الظواهر النفسية التي تكون نتيجة لتفاعل المجتمع . ومن البديهي انه لا تلازم بين العلم بالدين والوازع الديني ، ففي الشعب الواحد نجد ان الوازع الديني يتجلی بسلطانه في الطبقات التي هي اقل ثقافة . وهذا امر تقره المشاهدة والبيان .

واما تأثير اللهجة الاقليمية في التمايز العربية المحلية فقد كان واضحا بعض الوضوح في العهد القريب الذي كانت وشائج العروبة فيه في شبه تمزق

يقضي كذلك على لغة القرطاجيين وغيرهم في شمال افريقيا ، وعلى لغة النبط في شمالي الصراق ، وان يقلص ظل اللغة الرومية من الاطراف الشمالية بلاد الشام ، كما استطاع ان يغير وجه اللغة الفارسية بمنتها اكثر من 30 % من الفاظها ، وكذلك امكن هذا السلطان ان يترك في جنوب ايطاليا وصقلية وفي تركيا واسبانيا وجنوب فرنسا اثرا ظاهرا داما تفاوت درجاته في القلة والكثرة .

ولم تستطع اية لغة اخرى ان تترك اثرا ملمسا في اللغة العربية الفصيحة التي حرصت على نقاءها وصفائها ، ولا اثرا واضحا في لهجاتها العامية التي هي بطبيعتها اشد استجابة للفات الدخيلة .

اما القول بأن اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام فقول يحيطه التحفظ ، فالاسلام اتى انتشر بمبادئه وأصوله الفطرية السليمة . يدل على ذلك هذه الملائكة السلسلة التي لا تعرف من العربية قليلا ولا كثيرا ، وهذه الآلاف التي تعتقدن الدين الاسلامي من الاوربيين والامريكيين والافريقيين والاسيويين لا عن وراثة ورثوها ، ولا عن امة وجدوا عليها آباءهم ، بل بالقراءة والتذير في لغاتهم الأجنبية التي يطعون بها على مباديء هذا الدين الحنيف . على حين لا نجد هذه الاعداد في المعاصرین من معتقدى الديانات الأخرى الا بالارغام السياسي او التبشيري المطэр .

ومن الحق ايضا ان اقول : ان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام بين من كانوا يتكلمون باللغة العربية في شبه جزيرة العرب ، ثم من جاء بعدهم من الاجيال التي درست العربية او صارت العربية لغتها . ذلك ان اعجاز القرآن ، وهو مظهر التحدى الصريح الذي نطق به القرآن في قوله « قل لئن اجتمع الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » كان هذا الاعجاز حقيقة واقعة الجمجمة العرب انفسهم وجعلتهم يدركون منطقيا ان مستوى بيان هذا الكتاب فوق مستوى البشر . ويسجل التاريخ عدة محاولات حاول أصحابها ان يبارروا هذا القرآن او ان ينسجوا على منواله ، فباءوا بفشل واضح ، وكان هذا بمثابة الدليل القاطع على انه كتاب سماوي يحق للبشر ان يدينو بدينه وان يؤمنوا به وبين انزل عليه .

واما السؤال الاخير الخاص بالمكانة التي يجب ان تحتلها العربية في موطنى مصر بالنسبة للغات الاجنبية ، فاني اعتقد ان اجابته موحدة بين كل مثقف عربي ، وهو ان يكون للفة العربية **السلطان الاول** في اللغات الثقافية المحلية ، وأن تكون هي لغة العلم المحلية .

واعتقد ان المحاولات التي بدات في الجامعات المصرية لتعريب التدريس الجامعي تتسم بكثير من النجاح وان كانت الجمهورية السورية قد قطعت في ذلك شوطا اطول من شوط الجمهورية العربية المتحدة . والامل معقود في أن يتم تعريب التدريس الجامعي في تؤدة وتنسق حتى يصل الى المستوى العالمي .

بفعل الاستعمار ، وكانت لغة الصحافة ولغة المكاتب متباينة في بلادنا العربية وهذه الظاهرة الان في طريق الانحسار بمقتضى تقارب الشعوب العربية وسهولة الانتقال بين اطرافها . ونحن الان في الكويت نجد صدى كبيرا للمجتنا المصرية بين المواطنين الكويتيين الذين درسوا في مصر ، او قام بالتدريس لهم في الكويت مدرسوون مصريون ، او الذين تفاعلوا مع وسائل الاعلام .

وكذلك نجد كثيرا من المصطلحات اللغوية السورية قد اخذت طريقها الى مصر ورسخت فيها ولا سيما في ايام الوحدة السياسية القريبة . ومهما يكن من تقارب بين شعوبنا العربية فاني اعتقد ان لكل مواطن من مواطنن العربة تراثا لغوي يسري في دمائه ولا يمكن التخلص منه ، الا اذا امكن التخلص من الفولكلور الشعبي .

